رقي الأسرة المسلمة

وعلاقته برقي الأمم الإسلامية

لحضرة صاحب السعادة صالح عنان باشا

أما أن لنا نحن المسلمين مجدا قديما وتاريخا عظيما فذلك أمر لا مرية فيه . وفي وسعنا ان نباهي بأبائنا ما وسعتنا المباهاة ، وأن نتحدث بفتوحاتهم وسعة سلطانهم وجلال مدنيتهم وفرط نبوغهم في مختلف العلوم والفنون ، من طب إلى فلسفة إلى تشريع إلى رياضة إلى عمارة إلى شعر إلى موسيقى ، ولن يكذبنا أحد إذا قلنا إننا كنا في تكوين دولتنا الواسعة الأطراف أسرع من المصريين القدماء ومن اليونان والرومان ، فكل أولئك تكونت عظمتهم في قرون ، أما الملك الكبير الذي أنشأه المسلمون في قارات ثلاث فقد أقامته أيدي الغطاريف الصناديد في ثمانين عاما .

وأما أن ديننا الذي اتخذه أباؤنا دستورا وهاديا ، دين مدنية وعلم وعدل وتعاون وتسامح وبر بالمجتمع الانساني كله فذلك حق لا ينكره علينا منصف ولا عاقل .

ولكن ماذا تجدي المباهاة بماضينا ؟ وما الغناء في ثنائنا على ديننا وتعدادنا لفضائله ، إذا كان واقع الحال أننا تأخرنا عن صفوف الأمم الناهضة ، وعجزنا عن صيانة ما ترك الأسلاف من تراث جليل ؟ وأي عزاء لنا بالتعزي بسنن التاريخ وما تكتب الأقدار على الأمم من ذل بعد عز ، وسقوط بعد ارتفاع ، وموت بعد حياة ؟ ؟

ليس في هذا كله ما يرأب الصدع أو يضمد الجرح أو يعيد المجد سيرته الأولى . وإنما للنهوض أسباب وللسقوط أسباب . فلنعرف كيف ارتفع السابقون ، وما هي الوسائل التي هيأت لهم الحياة المطمئنة والملك الكبير ، ولنحاول الأخذ بها مرة أخرى إذا كنا نواقين حقا إلى رد ما فات ووصل ما انقطع .

لست أعزو المجد الغابر والتأخر الحاضر إلا إلى حال الأسرة أمس واليوم ، فان الأسرة المطمئنة أساس المجتمع المطمئن ، وإذا كان الذين بنوا ذلك الماضي الجليل هم رجال أشداء ، أقوياء النفوس والأجسام ، فانما أنجبتهم نساء صالحات كن يعشن عيشة راضية قويمة شريفة عاملة مجدة .

فالمرأة إذن هي أساس الأسرة ، ولا يصلح الرجل إلا بصلاحها كما لا تصلح الثمرة لا بصلاح شجرتها .

كان المسلمون الأول يعرفون دينهم على حقيقته ، و يعرفون أنه دين تعمير وقربى و إخاء ، ويعرفون أن قوامة الرجال على النساء ليست مجرد استمتاع وتحكم وامتلاك كما تمتلك الضياع أو كما يتصرف المرء فى السلع والمشتروات ، بل كانت القوامة عندهم مسئولية فى عنق الرجل ترتب للمرأة حقوقها وتعين واجباتها . كان الرجل يعلم أن من واجبه تهيئة الحياة الرغدة لزوجته ، وخدمة صحتها وثقافتها بقدر ما فى وسعه ، لتكون قادرة على إعداد أبناء وبنات ينشؤون على مثال أبويهم بررة صالحين نافعين ، لا خاملين ولا متمردين ولا مدللين ، ولا منصرفين عن جد الحياة إلى لهوها ، وعن صالح العمل إلى سيئه .

كان الزواج فيما يفهمه الرجل والمرأة معا من أحكام دينهما ، تعاونا مثمرا وشركة دائمة لايلغيها إلا الموت . فلم تكن الزوجة مهددة بطلاق مفاجئ يهدم سعادتها و يحرم أبناءها من حضانتها أو من حضانة أبيهم ، أو بزوجة جديدة تقاسمها قلب زوجها وماله ، وتنغص عليها وعلى أولادها حياتهم ، وتنتج لهؤلاء الأولاد أخوة جددا قلما يكونون معهم على صفاء أو وداد ، بل لابد من التنازع والتحاسد بينهم فى حياة أبيهم و بعد مماته ، ومنهم من يتمرد على أبيه و يكون نقمة عليه ، وهكذا يتقوض صرح الأسرة وتفشو فى المجتمع الضغائن والعداوات ، و يقل التراحم والتعاون على العمل النافع .

" الطمأنينة " هى التى أسعدت الزوجات فأسعدن الأزواج والأبناء ، فأسعدوا المجتمع بأسره . لأن الرجال مادامت حياتهم المنزلية مستقرة فهم ينصرفون إلى العمل غير منغصين ولا معوقين ، وما دام بالهم خلوا من هموم البيت ومن منازعات الأسرة فإن لذلك أثره الحسن فى صحة أجسامهم وصفاء أذهانهم ومضاء عزائمهم والمجتمع الناجح إنما هو ذلك المجتمع الذى يتكون من رجال أصحاء الأبدان والأذهان والعزائم ، أولئك هم الذين ينهضون بالعلم و يعنون بالفن و يستنبطون الوسائل لرفع شأن الوطن وإعلاء كلمة الدين .

ولكن كيف تطلب هؤلاء الرجال وأين تجدهم ، إذا كان المجتمع قد فسد بفساد الأسر ، والأسر قد تقوضت وتفرقت كلمتها بزوال الطمأنينة عنها ، وما أزال هذه الطمأنينة إلا شيوع الطلاق وتعدد الزوجات ؟

ما من شك فى أن الأسرة المسلمة اليوم ليست كالأسرة المسلمة بالأمس فى ترابطها وتعاونها ومتانة بنيانها . ذلك أننا سمعنا أن الإسلام يبيح الطلاق فحسبها الكثيرون منا إباحة مطلقة غير مقيدة بقيد ، وظنوا أن المرأة ثمرة يعتصرون حلوها ثم ينبذونها ، أو لباس يزينون به أجسامهم مادام جديدا هفهافا ثم يلقون به بين المهملات إذا طال عليه العهد ، ونسوا أن أزواج النبى كن عنده شريكات ومشيرات وراويات عنه العلم والحكمة والبيان ومن ثم فقد أسرفوا فى الطلاق مهملين زوجاتهم غير عابئين بمصيرهن . وهل يجعن أم يشبعن ، و يستعصمن

أم يسقطن، ومهملين أولادهم إلا من نفقة سخية أو بخيلة، غير مهتمين بمصيرهم . أى أمان بعد ذلك على مستقبل أولئك الأولاد مادامت الرقابة عليهم منقوصة وما داموا قد رأوا من أبويهم هذا المثل السيئ فى التقاطع والاستخفاف بالأواصر . وأى عجب بعد ذلك أن يوجد منهم من يشق عصا الطاعة على أمه أو أبيه ؟

لقد غاب عن أولئك المسرفين فى الطلاق، المستهينين بعواقبه، أن الاسلام الذى يجعلونه حجتهم وإمامهم قد قال بلسان من بلغه إلى الناس " أبغض الحلال إلى الله الطلاق " .

وكذلك عمد أناس إلى قول الله تعالى " فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع " فأخذوا به دون قيد ولا شرط ، وتركوا قوله " فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة " ثم قوله بعد ذلك " ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم ، فلا تميلوا كل الميل " وكذلك تركوا ماحتمته السنة وآراء علماء الدين من ضرورة وجود سبب قاهر يدعو إلى التعدد ، كعقم أو مرض أو غيرهما، فهم لايبحثون الأسباب ولا يستطيعون العدل ولا كبح الميل ، وكل ما يعنيهم هو إرضاء شهواتهم ومطاوعة غرائزهم ، ووراء ذلك ماوراءه من عسر فى العيش وتفرق وشقاق بين الإخوة غير الأشقاء وسوء مصير أكثرهم، وشقاء الأسرة والمجتمع بهم و بأمهاتهم .

بهذه العلل وأمثالها وهت عرى الأسرة الاسلامية ، ولم يكن الذنب بالطبع ذنب هذا الشرع الاسلامى الحكيم ، بل ذنب الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ، والذين يؤمنون ببعض الكتاب و يكفرون ببعض ، والذين يكيفون شهواتهم وأهواءهم تكييفا دينيا ظالما ، وصدق المعرى إذ قال :

وكم من فقيه خابط فى ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل !

لقد نبتت الأمم الاسلامية ونمت وترعرعت فى ظل دستور حازم مصلح حكيم ، فلما تحايلت على نصوصه وأعملت فيها سوء التأويل والتفسير وتصرفت كما شاء لها الهوى بالتحليل والتحريم، اختلط الأمر على أصحابه وفسدت الأوضاع وانحلت الروابط وفترت الهمم وتأخرنا فى مضمار العلم والحضارة بل عجزنا حتى عن التفكير السديد .

" الأسرة " كما قلت ، هى أساس نمو المجتمع مادامت بخير ، وهى علة تأخره مادامت واهنة محرومة من الطمأنينة . وليس أسرع عصفا بالطمأنينة من أن تعيش الزوجة مهددة بالطلاق وتعدد الزوجات ، ولا أسوأ أثرا فى حياة الأسرة من أن يمضى الزوج فيهما دون القيود الثقيلة التى وضعها الاسلام لهما .

فنحن فى أشد الحاجة إلى إعادة الطمأنينة الى الزوجات لتعود إلى الأسر ، وذلك لا يكون إلا بوضع تشريعات ترد الطلاق والتعدد إلى حدود التعاليم الإسلامية الصحيحة .

صالح عنان